شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء النصرانية في عهد الدولة العباسية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

رحلة ابن بطلان الى الشام (تتمة)

هذه الرحلة صنّفها ابن بطلان على صورة رسالة كتبها ووجّهها الى بغداد الى ابي الحسن هلال بن الحسن الصابي (١ سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٩م) رواها ياقوت قطعاً متفرّقة في معجم البلدان وجمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء

وكانت احوال الشام في تلك السنين مضطربة وكثرت فيها الحروب. كان الخليفة في بغداد القائم بامر الله وكانت مصر تحت حكم المستنصر بالله العلوي. وكان يتلك على حلب معزّ الدولة ثمال بن صالح بن مرداس صاحب الرحبة سابقاً. امّا انطاكية فكان استولى عليها الروم سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣م) في عهد نيقيفورس فوكاس فبقيت في يدهم الى السنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤م) فدخلها ابن بطلان في ايام حكم الروم عليها :

﴿المقدّمة﴾ بسم الله الرحمن الرحيم أنا لما اعتقدهُ من خدمة سيّدنا السيد الاجلّ اطال الله بقاءهُ وكبتَ اعداءهُ دانياً وقاصياً وافترضهُ من طاعته مقيماً وظاعناً، أضمرتُ عند وداعي حضرتهُ العالية وقد ودّعتُ منها الفضل والسؤدد والمجد والفخر والمَحتِد أن اتقرّب اليها وأجدّد ذكري عندها بالمطالعة عمّا أستطرفهُ من اخبار البلاد التي أطرُقها واستغربها من غرائب الاصقاع التي أسلكها خدمةً للكتّاب الذي هو تاريخ المحاسن والمفاخر، وديوان المعالي والمآثر، ليودعهُ ادام الله تمكينهُ منها ما يراهُ ويلحق ما يستزيدهُ ويرضاهُ وعليَّ ذكرهُ. فما رأيتُ احداً بمصر وهذه الاعمال اكثر من الراغب فيهِ وكل رئيس في هذه الديار متشوّق اليهِ ولوصوله مترقّب متوقّع. ولو

---

١) وروى ياقوت (٣:٢٠٦) انهُ كتبها الى هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي في دولة بني مرداس وهلال هذا من مشاهير الكتاب توفي سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م)

وصلت منهُ نسخة ابلغ الجالبُ لها أُمنيّتهُ في رِبحها ونَفعها. والى الله تعالى ارغب في نشر فضيلتهِ الباهرة ومحاسنهِ الزاهرة بجودهِ

﴿من بغداد الى حلب﴾ كنتُ خرجتُ من بغداد وبدأتُ بلقاء مشايخ البلاد وخواصّها واستملاء ما عندهم من آثارها وعجائبها. فذُكر لي اخبار مستطرفة وغرائب عجيبة وعجائب غريبة وانواع من الشعر (١ رائقة . ولضيق اوقت وسُرعة الرسول اضربت عن اكثرهِ واختصرتُ على أقلّه. وكنتُ خرجتُ على اسم الله وبركتهِ مستهلّ شهر رمضان سنة اربعين واربعمائة (ك ٢ ١٠٤٩) مُصعدًا في نهر عيسى (٢ على الانبار. ووصلتُ الى الرَّحبة (٣ بعد تسع عشرة مرحلة وهي مدينة طيّبة وفيها من انواع الفواكهِ ما لا يُحصى وبها تسعة عشر نوعاً من الأعناب وهي متوسّطة بين الانبار وحلب وتكريت والموصل وسنجار والجزيرة وبينها وبين قصر الرصافة مسيرة اربعة ايّام . وهذا القصر (٤ حصنٌ دون دار الخلافة ببغداد مبنيّ بالحجارة وفيهِ بيعة عظيمة (٥ ظاهرُها بالفصّ المذهّب (٥ انشأها قسطنطين بن هيلانة وجدّد الرَّصافة وسكنها هشام بن عبد الملك وكان يُفرَع (يفزع اليها من البقّ في شاطئ الفرات. وتحت البيعة (٦ صهريج في الارض على مثل بناء الكنيسة معقود على اساطين الرخام مبلّط بالمرمر مملوء من ماء المطر . وسكّان هذا الحصن بادية اكثرهم نصارى ومعاشهم تخفير القوافل وجَلب المتاع والصعاليك مع اللصوص. وهذا القصر في وسط برّية مستوية السطح لا يردّ البصر من جوانبها إلّا الافق .

﴿حلب﴾ ورحلنا منها الى حلب (٧ في اربع رحالات وهي بلدٌ مسوَّر بالحجر

---

١) ويروى : اقطاع من الشعر .

٢) نهر عيسى احد الانهار المشقّة من الفرات

٣) الرحبة هي المدينة المعروفة برحبة مالك بن طوق على شطّ الفرات

٤) ما وُضع بين هلالين ورد في معجم البلدان لياقوت (٣ : ٧٨٥) ولم يروهِ جلال الدين القفطي

٥) الفصّ المذهب هو المعروف بالفسيفساء (mosaïque)

٦) كانت في الرصافة بيعة للقديس سرجيوس الذي استشهد هناك مع القديس بَخُوس وكان العرب يعظّمونها وذكرها الاخطل في شعرهِ

٧) هذا الوصف ذكرهُ ايضاً ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٦)

الابيض فيه ستة ابواب وفي جانب السور قلعة في اعلاها مسجد وكنيستان وفي احداهما كان المذبح الذي يقرّب عليه ابراهيم عم . وفي اسفل المقارة كان يخبأ فيها غنمهُ واذا حلبها اطاف الناس بلبنها فكانوا يقولون : « حَلَبَ ام لا » ويسأل بعضهم بعضاً عن ذلك فسُمّيت حلب (١ . وفي البلد جامع وستُّ بِيَع وبيمارستان صغير والفقهاء يُفتون على مذهب الإمامية . وشربُ اهل البلد من صهاريج مملوءة بماء المطر . وعلى بابهِ نهرٌ يُعرف بقُوَيق يَمُدُّ في الشتاء وينضبُ في الصيف . وفي وسط البلد دار عُلوَةَ صاحبة البحتري (٢ وهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبيذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم (٣ . « ومن عجائب حلب انَّ في قيسارية البزّ عشرين دكاناً لوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدرهُ عشرون الف دينار . مستمرٌّ ذلك منذ عشرين سنة والى الآن . وما في حلب موضع خراب اصلًا »

﴿انطاكية﴾ وخرجنا من حلب طالبين انطاكية بينها يوم وليلة فبتنا في بلدة للروم تُعرف بعِمّ فيها عين جارية يُصاد فيها السمك ويدور عليها رحى وفيها من الخنازير (٤ ومباح النساء والخمور امرٌ عظيم وفيها اربع كنائس وجامع يؤذَّن فيه سرًّا . والمسافة التي بين حلب وانطاكية عامرة لا خراب فيها اصلًا ولكنها ارض زرع للحنطة والشعير تحت شجر الزيتون (٥ قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها متفجرة يقطعها المسافر في بالٍ رخيّ وأمن وسكون . وانطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل وللسور ثمانية وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة اربعة آلاف حارس يُنتقَدون من القسطنطينية من حضرة الملك فيضمنون حراسة البلد سنةً ويُستبدَل بهم في الثانية . وشكل البلد كنصف دائرة قُطرها يتّصل بجبل والسور يصعد مع الجبل الى قُلّته ويستتمّ دائرة (٦ . وفي رأس الجبل داخلَ السور قلعةٌ تبينُ لبعدها من البلد

---

١) هذه رواية ضعيفة فانَّ اسم حلب ورد في الآثار الاشورية قبل عهد ابراهيم الخليل

٢) هي علوة بنت زُرعة الحلبيّة كان البحتري يشبّب بها

٣) هذا ما ذكرهُ القفطي لابن بطلان عن حلب وزاد عليه ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٢٠٧) ذكر بعض شعراء وجدهم في حلب وختم بها وضمناهُ بينَ هلالين

٤) روى ياقوت (٣ : ٧٢٩) : « مشاربر الخنازير

٥) روى القفطي : بجنب شجر الزيتون

٦) روى ياقوت : فتتمّ دائرة

صغيرة . وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها الّا في الساعة الثانية . والسور المحيط بها دون الجبل خمسة ابواب وفي وسطها بيعة القسيان (١ . وكانت دار قسيان للملك الذي احيا ولدهُ بطرس رئيس الحواريين (٢ وهو هيكل طولهُ مائة خطوة وعرضهُ ثمانون وعليهِ كنيسة على أساطين ودائر الهيكل اروقة يجلس فيها القضاة للحكومة ومعلّمو (٣ النحو واللغة . وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان (٤ الساعات يعمل ليلًا ونهارًا دائمًا اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا . وفي أعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمّامات وبساتين ومقاصير حسنة (٥ تخرُّ منها المياه وعلّة ذلك انَّ الماء ينزل عليها من الجبل المطلّ على المدينة

وهناك من الكنائس ما لا يُحدّ كثرةً كلُّها معمولة بالفضّ (بالفِصّ) المذهب (٦ والزجاج الملوَّن والبلاط المجزَّع . وفي البلد بيمارستان يراعي البطريرك المرضى فيهِ بنفسهِ» ويدخل المجذَّمين الحمّامَ في كل سنةٍ فيغسل شعورهم . ومثل ذلك يفعل الملك بالضعفاء كل سنةٍ ويعينهُ على خدمتهم الاجلّاء من الرؤساء والبطارقة التماس التواضع (٧ . « وفي المدينة من الحمّامات ما لا يوجد مثلهُ في مدينةٍ اخرى لزيادةٍ وطيبهِ » لان وَقودها من الآس وما شاكلها تسعى سَيْحاً بلا كلفة »

« وفي بيعة القُسيان (٨ من الخدم المترزقة ما لا يُحصى . ولها ديوان لدخل الكنيسة وخرجها . وفي الديوان بضعة عشر كاتباً . ومنذ سنةٍ وكسر وقعت في الكنيسة صاعقة وكانت حالُها عجيبة . وذلك انهُ تكاثرت الامطار في آخر سنة

---

١) روى القفطي : قلعة القسياني

٢) ورد في بعض التقاليد القديمة انَّ القديس بطرس الرسول لمَّا دخل انطاكية وجد ولد واليها الروماني ميتًا فاحياهُ وعمّد الوالد والولد ونشر النصرانية في انطاكية واعطاهُ الحاكم قصرهُ فجعلهُ كنيسة عُرفت ببيعة القُسيان

٣) روى ياقوت : متعلّمو

٤) فِنجان كلمة فارسيّة تعريب بنكان وهي الساعة الزوالية (clépsydre) ويقال في العربيّة ايضًا بنكام

٥) روى ياقوت : مناظر حسنة

٦) روى ياقوت : بالذهب والفضّة

٧) ما جلاهُ بين هلالين رواهُ ياقوت وحدهُ (١ : ٣٨٢)

٨) كل هذه القطعة بين الهلالين التي تتضمَّن وصف الزلزلة التي حدثت في انطاكية لم يذكرها جلال الدين القفطي واتمّا دوَّنها ياقوت (١ : ٣٨٢-٣٨٤)

١٣٦٢ للاسكندر الواقع في سنة ٤٤٢ للهجرة وتواصلت اكثر أيام نيسان . وحدث في الليلة التي صبيحتُها يوم السبت الثالث عشر من نيسان رعدٌ وبرقٌ اكثر مما أُلف وعُهد وسُمع في جملته اصوات رعدٍ كثيرة مَهولة ازعجتِ النفوس ووقعت في الحال صاعقةٌ على صدَفةٍ مخبيَّة في المذبح الذي للقُسيان فثلقت من وجه النَّصرانيَّة (كذا) قطعةً تشاكل ما قد نُحت بالناس والحديد الذي تُنحت بهِ الحجارة وسقط صليبٌ حديد كان منصوباً على علوّ هذه الصَدَفة وبقي في المكان الذي سقط فيهِ . وانقطع من الصَّدَفة ايضاً قطعة يسيرة . ونزلت الصاعقة من منفذٍ في الصدَفة وتُنزّل فيهِ الى المذبح سلسلة فضَّة غليظة يُعلَّق فيها الثيموطون (كذا) وسعة هذا المنفذ اصبعان فتقطَّعت السلسلة قطعاً كثيرة وانسبك بعضها ووُجد ما انسبك منها ملقًى على وجه الارض . وسقط تاج فضةٍ كان معلَّقاً بين يدي مائدة المذبح وكان من وراء المائدة في غربيّها ثلث كراسي خشبيَّة مربَّعة مرتفعة يُنصب عليها ثلثة صلبان كبار فضَّة مذهَّبة مرصَّعة وقُلع قبل تلك الليلة الصليبان الطرَفيان وتَشظَّيا وتطايرت الشظايا الى داخل المذبح وخارجهِ من غير ان يظهر فيها اثر حريق كما ظهر في السلسلة ولم يَنل الكرسيَّ الوسطانيَّ ولا الصليبَ الذي عليهِ شيء . وكان على كل واحد من الاعمدة الاربعة الرخام التي تحمل القبة الفضة التي تغطي مائدة المذبح ثوبُ ديباج ملفوف على كل عمود فتقطَّع كل واحد منها قطعاً كباراً وصغاراً . وكانت هذه القطع بمنزلة ما قد عُفِنَ وتهرَّأ ولا يُشبه ما قد لامستهُ نار ولا ما احترق ولم يلحق المائدة ولا شيئاً من هذه الملابس التي عليها ضررٌ ولا بان فيها اثرٌ . وانقطع بعضُ الرخام الذي بين يدي مائدة المذبح مع ما تحتهُ من الكلس والنورة كقطع الفاس . ومن جملتهِ لوح رخام كبير طفرَ من موضعهِ فتكسَّر الى علوّ تربيع القبة الفضَّة التي تغطي المائدة وبقيت هناك على حالهِ وتطافرَ بقيَّة الرخام الى ما قرُب من المواضع وبَعُد . وكان في المجنَّبة التي للمذبح بَكرة خشب فيها حبل قُنَّب مجاور السلسلة الفضَّة التي تقطَّعت وانسبك بعضها معلَّقٌ فيها طبقُ فضة كبير عليهِ فراخ قناديل زجاج بقي على حالهِ ولم ينطفئ شيء من قناديلهِ ولا غيرها ولا شمعة كانت قريبة من الكرسيّين الخشب ولا زال منها شيءٌ . وكان جملة هذا الحادث مما يُعجب منهُ وشاهد غير واحد في داخل انطاكية وخارجها في ليلة الاثنين الخامس من شهر آب من السنة المقدَّم ذكرها في السماء شبه

كُرَةٍ ينورُ منها نورٌ ساطعٌ لامع ثم انطفأ واصبح الناس يتحدثون بذلك. وتوالت الاخبار بعد ذلك بانهُ كان في اوّل نهار الاثنين في مدينة غُنجُرة وهي داخل بلاد الروم على ١٩ يوماً من انطاكية زلزلة مهولة تتابعَتْ في ذلك اليوم وسقط منها ابنيةٌ كثيرة وخُسفَ موضعٌ في ظاهرها. وكان هناك كنيسة كبيرة وحصنٌ لطيف غابا حتى لم يبقَ لهما اثر ونبَع من ذلك الخَسف ماء حارٌ شديد الحرارة كثير المَنبَع المتدفق وغرق منهُ سبعون ضيعة. وتهارب خلقٌ كثير من تلك الضياع الى رؤوس الجبال والمواضع المرتفعة العالية فسلموا. وبقي ذلك الماء على وجه الارض سبعة أيّام وانبسط حول هذه المدينة مسافة يومين ثمّ نَضبَ وصار موضعهُ وحلًا. وحضر جماعة ممّن شاهد هذه الحال فحدّثوا بها اهل انطاكية على ما سطّرتُهُ وحكوا انّ الناس كانوا يُصعدون امتعتهم الى رأس الجبل فيضطرب من عظم الزلزلة فيتدحرج المتاع الى الارض»

وظاهر البلد نهرٌ يُعرف بالمقلوب(١ يأخذ من الجنوب الى الشمال وهو مثل نهر عيسى وعليهِ رحى ويسقي البساتين والاراضي. وخارج البلد دير سمعان وهو مثل نصف دار الخليفة يُضاف فيها المُجتازون يقال انّ دَخلَهُ في السنة اربعة آلاف دينار(٢. ومنهُ يُصعد الى جبل السكّام وفي هذا الجبل من الديرات والصوامع والبساتين والمياه المتفجرة والانهار الجارية والزهّاد والسيّاح وضرب النواقيس في الاسحار وألحان الصلوات ما يتصوّر معهُ الانسان انهُ في الجنة. وفي انطاكية شيخ يُعرف بابي نصر ابن العطار قاضي القُضاة فيها لهُ يدٌ في العلوم مليح الحديث والإفهام

وخرجت من انطاكية الى اللاذقية وهي مدينة يونانيّة(٣ لها مينا وملعب وميدان للخيل مدوّر. وبها بيتٌ كان للاصنام وهو اليوم كنيسة وكان في اوّل الاسلام مسجداً وهي راكبة البحر وفيها قاضي للمسلمين وجامع يصلّون فيهِ واذان في اوقات الصلوات الخمس. وعادة الروم اذا سمعوا الاذان ان يضربوا الناقوس. وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم... ومن البلد من الجبال والزهّاد في الصوامع والجبال كلٌ فاضل يضيقُ الوقت عن ذكر احوالهم والالفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم واذهانهم

١) يريد نهر العاصي او نهر اورُنط ٢) وجاء في ياقوت(٣ : ٦٧٣) : ولهُ من الارتفاع كل سنة عدّة قناطير من الذهب والفضّة ٣) كانت اللاذقيّة وقتئذٍ في ايدي الروم

١٢ ابو تمّام الطائيّ

﴿ توطئة ﴾ قرأنا في آخر عدد من المقتطف (اغسطس ١٩٢٥ ص ٣٣٤) ما نصّهُ :

«عندنا نسخة الدكتور فان ديك في شرح البريزي للحماسة وعليها بخط الدكتور انّ ابا تمّام كان نصرانيًّا . فن اين اتى الدكتور فان ديك بذلك والمتعارف انّ أبا ابي تمّام كان نصرانيًّا»

فاحببنا ان نفرد هنا فصلًا لهذا الشاعر في كلامنا عن شعراء النصرانيّة في عهد الدولة العبّاسيّة . فننظر ما في مدّعى الدكتور فان ديك من الصحة

﴿ نسب ابي تمام ﴾ هو حبيب بن اوس الطائي ينتهي نسبهُ الى ابي القبيلة الغوث ابن طيّ ومنهُ الى يعرب بن قحطان . يُكنّى بابي تمّام وتمّام ابنهُ ورد ذكرهُ في تعريف بعض امور ابيهِ في الاغاني وغيرهِ . وُلد حبيب في جاسم وهي على ما قال المسعودي في مروجهِ الذهبيّة (٧ : ١١٧) « قرية من اعمال دمشق بين بلاد الاردن ودمشق بموضع يعرف بالحولان (بالجولان) على اميال من الجابية وبلاد نوا (كذا) وهي مراعي أيوب عم » . امّا صاحب الاغاني فقال (١٥ : ١٠٠) « هو من نفس طيّ صليبة مولدهُ ومنشأهُ بناحية منبج (كذا) بقرية منها يقال لها جاسم» وكان مولدهُ على قول تمّام ابنهِ سنة ١٨٨ هـ (٨٠٤م) ووفاتهُ سنة ٢٣١ (٨٤٥ م) امّا الشائع بين الكتبة والمؤرخين كنفطويهِ والطبري وابن الاثير انّ وفاته كانت في الموصل وقعت سنة ٢٢٨ (٨٤٢—٨٤٣م) . وروى ابن خلّكان في وفات الاعيان (١ : ١٥٠) عن ابي القاسم الآمدي في الموازنة قولهُ : « والذي عند اكثر النّاس في نسب ابي تمام انّ اباهُ كان نصرانيًّا من اهل جاسم قرية من قرى دمشق يقال لهُ تدوس (ولعلها تدّاوس او تدرُس) العطّار فجعلوهُ أوسًا وقد لُفّقت لهُ نسبة الى طيّ » . لكنّ ابن خلّكان لم يصدّق على قول الآمدي ولم يذكر نسبتهُ الى طيّ وانّما نقل قول الصولي : « قال قوم ان ابا تمّام هو حبيب بن تدوس النصراني فغيّر فصار اوسًا ثمّ روى عن ابيهِ انهُ كان حمّارًا بدمشق »

﴿ خلاصة اخبار ابي تمام ﴾ قال الانباري في طبقات الادباء (ص ٢١٣) : « ابو تمام شامي الاصل» وروى ابن خلكان ١ : ١٥٣) : « انهُ كان يخدم حائكًا ويعمل

عنده بدمشق ». قال : « ونشأ بمصر قيل انهُ كان يسقي الماء في جامع مصر » وزاد الانباري : « وجالس الادباء فاخذ عنهم وتعلّم وكان فطناً فهماً وكان يحبُّ الشعر فلم يزل يعانيهِ حتى قال الشعر وأجادهُ وسار شعرهُ وشاع ذكرهُ » . وقد تنقّل ابو تمام في انحاء الشام وسكن مدّة حمص فلم يحمد اهلها (اطلب ديوانهُ ص ٢٣٨ طبعة محيي الدين الخياط) ورحل الى العراق : قال الانباري (ص ٢١٤) : « وبلغ الخليفة المعتصم خبرهُ فحملهُ اليهِ فعمل فيهِ ابو تمام قصائد عدّة واجازهُ المعتصم وقدّمهُ على شعراء وقتهِ » ولمّا قدم الى بغداد جالس فيها الادباء وعاشر العلماء وكان موصوفاً بالظرف وحسن الاخلاق وكرم النفس ثمّ مدح الخليفة هارون الواثق خلف المعتصم وسافر في اوّل ايّامهِ الى سامرّا ورحل الى خراسان وارمينية والجزيرة فمدح كبار عمّال الدولة واعيانها كمالك بن طوق التغلبي وابي دلف واحمد بن ابي دوّاد وعبدالله بن طاهر وخالد ابن يزيد بن مزيد والوزيران محمّد بن الزيّات والحسن بن وهب . فعُني بهِ الحسن وولّاهُ بريد الموصل فاقام بها اقلّ من سنتين ومات ولم يتفقوا على سنة وفاتهِ . قال البحتري : « وبنى عليه ابو نهشل بن حميد الطوسي قبّة . (قلتُ) ورأيت قبرهُ بالموصل خارج باب الميدان على حافّة الخندق والعامّة تقول : هذا قبر ابي تمام الشاعر » (راجع ابن خلكان)

﴿دين ابي تمام﴾ رأيت انّ الدكتور ڤان ديك أعلن في نسخة من حماسة ابي تمام انّ « أبا تمام كان نصرانيًّا » وفي قولهِ هذا نظر :

﴿اوّلاً﴾ اتّفق من ذكر والد ابي تمام كالصولي والآمدي انهُ كان نصرانيًّا فلا بُدَّ انَّ ابنهُ حبيباً ولد ونشأ على دينهِ ومن هذا القبيل يجوز القول انَّ أبا تمام كان نصرانيًّا

﴿ثانياً﴾ لنا في اسمهِ حبيب وهو من الاسامي الشائعة بين النصارى النادرة بين المسلمين ما يدلُّ على نصرانيّته

﴿ثالثاً﴾ وليس في نسبتهِ الى طيّ ما ينفي نصرانيّتهُ فقد اثبتنا في كتابنا النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة (ص ١٢١—١٢٢ و١٣٢—١٣٣ و٤٥٦—٤٥٧) شيوع النصرانيّة في قبيلة طيّ وثبات قسم كبير من بطونها على نصرانيّتهم حتى بعد الاسلام بزمن طويل

﴿رابعاً﴾ وفي مزاولته في حداثته الحياكة والسقاية ما يدلّ على خموله بسبب دينه

﴿خامساً﴾ ثم ليس لنا كلام صريح لاحد رواة ترجمته ما يدلُّ على جحود دينه النصرانيّ

هذا ما يحملنا على القول بنصرانيّة ابي تمام. على انّ في ديوانه عدّة ابيات تشعر بانه يدين بالاسلام فحيناً يحلف بالبيت الحرام ويقول انهُ حجّ اليه وحيناً آخر يذكر نبي العرب ودين الاسلام كانهما نبيُّهُ ودينهُ واذا ذكر الروم نبذهم بالشرك والكفر ويعظّم القرآن. وهذا كلُّهُ لمّا يثبت اسلامهُ

فلا نرى تطبيقاً بين الامرين إلّا ان نقول انهُ لما اصاب حظوةً عند الخلفاء وعند وجوه الامراء وكبار الدولة عدل عن دينه الى الاسلام مجاملةً او طمعاً بحطام الدنيا. وليس قولنا هذه حدساً وقد أخذ العجب جنابَ خليل مردم بك في كتابه الحديث «شعراء الشام في القرن الثالث (ص٣٥—٣٧) حيث قابل بين مديح ابي تمّام للخلفاء من اهل السنة واطرائهِ للشيعة العلويّة وانتصاره لحقوقها في الخلافة فرأى تناقضاً بيّناً نسبهُ الى اختلاف الزمان

أمّا المسعودي في مروج الذهب فنسب أبا تمّام الى المجون وقلّة الدين قال (٧: ١٥١):

«وكان (اي ابو تمام) ماجناً خليعاً في بعض احواله ورثّما ادّاهُ ذلك الى ترك موجبات فرضهِ تماجناً لا اعتقاداً (!)»

ثم روى لبعض الثقات عن المبرّد النحوي نقلاً عن الحسن بن رجاء قال:

«صار اليَّ ابو تمام وانا بفارس فاقام عندي مقاماً طويلاً ونُسيَ اليَّ من غير وجه انهُ لا يصلّي. فوكلتُ بهِ من يراعيهِ ويتفقدهُ في اوقات الصلوات فوجدتُ الامر على ما اتّصل بي فعاتبتهُ على فعلهِ. فكان من جوابهِ أن قال: أتُراني انشطُ للشخوص اليك من مدينة السلام وانجشّم هذه الطرقات الشاقّة واكسلُ عن هذه الركعات لا موزونة عليَّ فيها لو كنتُ اعلم انَّ ان صلّاها ثواباً وعلى من تركها عقاباً؟ (قال) وهممتُ والله بقتلهِ ثمّ تخوّفت ان يُصرَف الامر الى غير جهتهِ. قال المبرّد: وهو مع هذا يقول:

وأحقُّ الانام أن يَقضيَ الدَّين م امروء كان للاله غريمَا

وهذا قولٌ مباين لهذا الفعل»

فترى انّ اسلام ابي تمام كان سطحيّاً ليس تماجناً فقط كما قال المسعودي بل اعتقاداً

ايضاً فذكرناهُ هنا بين شعراء النصرانية ليس افتخاراً بدينهِ بل بياناً لحقيقة تاريخيَّة . ثمَّ انَّ في شعرهِ ابياتاً تنبئ بمعرفتهِ لعادات النصارى كقولهِ في هرب توفيل زعيم الروم (الديوان ٣٣ : ٢) :

جنا الشرقَ حتى ظنَّ من كان جاهلاً بدين النصارى ان قِبلَتَهُ الغَرْبُ

﴿منزلتهُ بين شعراء عصره﴾ لا نطيل الكلام في هذا الموضوع بعد ان طرقهُ قبلنا ائمَّة الكتَّاب وخصوصاً ابو الفرج الاصبهاني في الاغاني (١٥ : ٩٩—١٠٨) فاعتبر ابا تمَّام «كامير الشعراء وخاتمهم مَن لا يشقّ الطاعنون عليه غبارهُ ولا يدركون وان جدُّوا آثارهُ» وفيه قال الحسن بن وهب يرثيه :

فُجِعَ القريضُ بخاتم الشعراء وغديرُ روضتها حبيب الطائي
ماتا معاً وتجاورا في حفرةٍ وكذاك كانا قبلُ في الاحياء

ورثاهُ محمَّد بن عبدالملك الزيَّات وهو حينئذٍ وزير فقال :

نبِّأْنَ من اعظم الانباء لمَّا أَلَمَّ مُقَلْقِلَ الأحشاء
قالوا حبيبٌ قد ثوى وأجبتهم نامت نواطرهُ لا نامت اعينُ الطائي

ولا نشاء ان نروي شيئاً من شعرهِ وهو لهُ في ايدي الجميع وقد تكرَّر طبعهُ : فطُبع اوَّلاً في مصر سنة ١٢٩٢ هـ طبعة سقيمة بلا شكل وبشروح قليلة على اهامش ثمَّ عُني بطبعهِ في بيروت الاديب شاهين عطيه اللبناني سنة ١٨٨٩ ثمَّ كرَّر طبعهُ محمد جمال مع شروح لمحيي الدين الخيَّاط . وهاتان الطبعتان مع فضلهما على الطبعة المصريَّة إلا انهما قاصرتان عن كل ما يطلبهُ العلماء من الضبط بالشكل الكامل وتعريف النسخ المنقول عنها الديوان وشرح المعاني وبيان ظروف القصائد واثبات الروايات المختلفة وجمع ما جاء متفرقاً من شعر ابي تمام في كتب الادباء . فانك ترى مثلاً في ما رواهُ ابو الفرج الاصفهاني في الاغاني عدَّة مقاطيع من شعر ابي تمام لم تُرَ في الديوان وكذلك هناك وفي الكامل للمبرِّد وغيرهما قطعٌ اخرى فيها روايات مخالفة لروايات الدواوين المطبوعة وبعضها افضل من المطبوع . فيا ليت احداً من ادبائنا يَسُدُّ هذه الثُّلم ويستفيد من ملحوظات ابي القاسم محمَّد الآمدي في الموازنة بين ابي تمام والبحتري فيُعنى بطبعةٍ جديدة وافية الشروط لذلك الديوان الفريد والاثر الجليل

(لهُ بقيَّة)